

معجزة كاستل دي سانجرو

حكايات شغف وطيش في قلب إيطاليا





جو ماكجينيس

ترجمة: تحسين الخطيب | مراجعة: أحمد خريس

استهلال

سافرت إلى إيطاليا سنةَ 1994 سعياً إلى شغف جديد، وكنت في أثناء الأسبوع الأول من شهر ديسمبر على متن قطار متجّه من بادوا إلى روما، حيث سيلعب صديقي الجديد ألكسي لالاس، بعد أربعة أيّام، مباراةَ كرة قدم.

كان لالاس، نجمَ فريق الولايات المتحّدة في بطولة كأس العالم لكرة القدم سنةَ 1994، وهي بطولة تُعقَد على شاكلة الألعاب الأولمبيّة مرّةً كلَّ أربع سنين في بلد مختلف، وقد أقُيمت بأمريكا في ذلك الصّيف.
لحقتُ بلالاس، بعد ثلاثة أشهر، آملاً في أن يتُيح لي فرصةَ قضاء بعض الوقت معه، حتىّ أستطيع تعلُّم المزيد حول هذه اللعبة التي أضحتْ هَوَسى في الآونة الأخيرة.

1- الوصول إلى أرض الحكايات الخرافية

ركبت الطائرة المغادرة إلى روما، وما كدت أدفع عربة أمتعتي خارج منطقة الجمارك، حتى اندفع نحوي على نحو مباغت حشد سائقي سيارات الاجرة، فاخترت الاول وهكذا وجدتني منطلقاً إلى أبر وتسو، الذي يٌعد من أفقر الأقاليم ومن أقلِّها زيارة في إيطاليا.
بيَد أنَّي لم أكُن سائحاً، فقد كان لديَّ عمل أنجزه في أبروتسو، بصرف النظر عما يمكن أن يسفر عنه ذلك. كانت وجهتي «كَاستِل دي سَانجرو»، البلدة النائية، التي يعتقد البعض بأنَّ اسمها يعني «قلعة الدّم» في اللهجة المحليّة.
يحمي البلدةَ من الغرباء ما يصفه أحد الكتب المرجعيَّة بـ «مشقة الوصول إليها». فهي تقع على ارتفاع نحو 3000 قدم فوق مستوى سطح البحر، ويدوم فصل الشتاء فيها من أكتوبر حتىَّ شهر مايو، وتهبُّ الريح عاصفةً عليها في جميع الفصول من الجبال العالية.
أنزلني السائق في محطة قطارات سولومونا المهجورة قبيل الظهيرة، باحثاً عن شخص قد يكون جُوْزِبَّهْ، ثُمَّ دخلتْ، حنيئذٍ تماماً، سيارة صغيرة باليةٌ، السَّاحةَ المخصَّصة لوقوف السيارات. خرج منها جُوْزِبَّهْ، الذي بدا في منتصف العشرينيات من عمره.

2- الكالتشيو: شغف فطري

أحتفظ بذكريات واضحة عما كانت تبدو عليه حياتي من قَبل. أفترض أنها كانت، في مناحٍ كثيرة، حياةً أفضل. لقد احترمني أولادي، وشاركتني زوجتي في اهتمامات عديدة، وكان لديَّ أصدقاء، واستمتعت بالموسيقى، وقرأت كتباً. لكن أن تستحوذ عليَّ كرة القدم، فجأةً، بدت مسألة أقرب إلى احتماليَّة أنْ أغدوَ رائد فضاء أكثر من أيّ شيء آخر.

ولم يكن ثمة شيء تدريجيّ أفضى إلى البداية. استيقظت، ذات صباح في أواخر ربيع عام 1994، وقد غمرتني فجأةً حماسة جارفة لأنَّ الولايات المتحدة سوف تستضيف كأس العالم في ذلك الصيف، وهي منافسة تعقد كل أربع سنين لتحديد بطل العالم في كرة القدم. ومع أنني لم أشاهد مباراة واحدة البتةّ، طيلة حياتي، فإن لذلك لم يكن أمراً ذا صلة.

ولأنَّني كنت متلهِّفاً إلى الحصول على المعلومات تلهُّفاً شديداً، في عصر ما قبل الإنترنت، فقد حرصتُ على الذَّهاب المتكرِّر، على غير عادتي، إلى مكتبات مغمورة بعيدة عن بيتي، عائداً بمجلَّدات لا تحوي فحسبُ ملخَّصات إحصائيَّة عن جميع مباريات كأس العالم التي أقيمت منذ أن عُقدَتْ البطولة لأوَّل مرَّة سنةَ 1930، وإنمّا على أوصاف وتحليلات عن المنتخبات القوميَّة الأربعة والعشرين التي ستتنافس في أمريكا أيضاً.

كانت الولايات المتحّدة تُنافس، ولا بد لي من الاعتراف بأنَّ الروح الوطنيَّة لم تلعب أيَّ دور في هَوَسي، فلقد تأثرَّت بتعادل إسبانيا وكوريا الجنوبيَّة تأثُّراً شديداً، لا يختلف عن مدى تأثُّري بفوز أمريكا الصاعق وغير المتوقَّع على كولومبيا. وحين علمت، على وجه السُّرعة، أنَّ التذاكر كانت متوافرة للمباراة التي سوف تقام على بُعد مسافة تستغرق ثلاث ساعات بالسيَّارة من منزلي، لم أعبأ كثيراً بأنَّ الفريقَيْن اللذينَ سوف يلعبان هما نيجيريا والأرجنتين. حتىَّ إننَّى، على الرغم من إعجابي باللاعبين النيجيريّين، لم أنزعج كثيراً في نهاية اليوم من أنَّ الأرجنتين قد فازت.

لم تكُن النتيجة النهائيَّة هي التي غيَّرت العالَم الذي عرفته إلى الأبد، وإنمَّا متعة الفُرجة وأبُهَّة الحدث: الشَّغف في المدرَّجات والملعب على حدٍّ سواء، الأجواء البرَّاقة والذَّوق والحماسة المدويَّة، فضلاً عن الجمال والتألُّق والقوَّة البدنيَّة والدَّهاء البارع الذي ساد لعب المباراة في حدّ ذاته.
كنت قادراً، حتىَّ ذلك الحين، على إشباع لهفتي بكل بساطة، بمشاهدة المباريات على شاشة التلفاز. ولكنَّ اللذة الأولى لذلك الشيء الحقيقيّ دفعتني إلى أفقٍ جديد.

تُعَدُّ «لا جازيتاَّ» أفضل الصُّحف الإيطاليةّ الثلاث اليوميَّة التي تكاد تكون مكرَّسة بالكامل لأخبار عالم الـ «كَالتْشْيُو» والإشاعات التي تدور حوله؛ و«الكالتشيو» هي الكلمة التي يطلقها الإيطاليُّون على كرة القدم (المعنى الحرفي: الرَّكلة).

الصحيفة مطبوعة على ورق وردي صارخ، بعناوين سوداء حالكة تزعق بحروف كبيرة لتهيّج مشاعر القارئ، تهيُّجاً شديداً، حتىَّ قبل أن يعرف إنْ كان من المفترض عليه الشُّعور بالغضب أم الفرح، وهي مسألة مرتبطة على نحو مثالي بالهستيريا الدراماتيكيَّة التي تشيعها هذه الرياضة في كلِّ زاوية من زوايا الحياة الإيطاليَّة.

3- الحالمة بجرَّة الذَّهب

كانت «لا سُوتشِتَّا» هي المؤسسة التي تملك كاستل دي سانجرو- نادي كرة القدم في البلدة- وتشرف على إدارته، وكان السيد جابرييل جراڤينيا رئيس النادي. وقد سألت، في إحدى رسائلي المرسلة بالفاكس، سواء إليه أو إلى جوزبَّه، مساعده الجديد للشؤون الخارجيَّة، إنْ كان من الممكن تعيين أحد السكَّان المحليِّين ليعمل مترجماً لي، في البداية على الأقل. ويبدو أنَّ الأمر قد كان. فها هي ذي باربرا، تنتظر الآن في الرَّدهة، على الرغم من أنه لا يخطر ببالي في هذه اللحظة أيُّ شيء يحتاج إلى ترجمة، إلا ربمَّا أحلامي المضطربة.

قالت: «أنا آسفة». «إن كان هذا الوقت غير مناسب لك، يمكننا الالتقاء لاحقاً، ولكنَّ جوزبَّه اقترح أن أهاتفك لأنَّ الرئيس جراڤينيا قد دعاك إلى العشاء بمطعم البيتزا في الساعة التاسعة مساء، فظننت أنَّني أستطيع أن آخذك، قبل أن نذهب إلى هناك، في جولة قصيرة بكاستل دي سانجرو». ثم كان اللقاء، مع «الرجل القصير صاحب المعطف الطويل والسيكار الكبير؛ إنهَّ مالك نادي كاستل دي سانجرو لكرة القدم. جابرييل جراڤينيا، رئيس النادي، وهؤلاء الرجال الطوال الذين يحيطون به على الجانبين. إنهَّم حرَّاسه الشخصيُّون.

4- دوائر جحيم دانتي

تشكَّل الفريق المحليُّ رسمياً في العام 1953، واكتسبت فرقة كاستل دي سانجرو، سمعتهَا، بوصفها صعبة المراس، وأنها مارست اللعبة على نحو غير عاديّ من العناد. ولقد حقَّق الفريق

درجةً عالية من النجّاح في صفوف أندية الهواة وشبه المحترفين على الصعيد المحليّ.
بدأ فريق كاستل دي سانجرو مشواره من القاع: وكان هذا مستوى مناسباً لفرقة لاعبين محليِّين، قادمين من بلدة في إقليم أبروتسو، ما زال سكَّانها خمسة الآلاف يعيدون تشييدها بعد أن هدَّمتها الحرب.

وكان، ضمن السكَّان الجدد، شابٌّ جنوبيٌّ ضخم البنية يدعى پيترو ريتسا، وصل إلى القرية على ظهر حمار ذات يوم فراح على الفور يشيدّ المنازل لبلدة كانت في أمسّ الحاجة إليها، ثمَّ سرعان ما تزوَّج ريتسا ابنةَ إحدى أثرى العائلات التي عادت إلى كاستل دي سانجرو بعد الحرب.

وبعد ثلاثين سنة من تأسيسه، صَعِد فريق كرة قدم بلدة كاستل دي سانجرو، الذي تبنَّاه السيدّ ريتسا، من الفئة الثالثة إلى الفئة الثانية، ولم يتطلَّب الأمر الكثير من المال: مجرَّدَ رسمٍ بسيط يدُفع إلى مكتب تصنيف الفئات المركزي من أجل ميزانيته التشغيليَّة، وبضعة آلاف من الليرات تدفع إلى كلِّ لاعب بعد كلِّ فوز، وقليل من المعدَّات الجديدة، وأموال نقديَّة متاحة بالقَدْر الذي يكفي لتغطية مصاريف الوقود لأولئك اللاعبين الذين يقودون سياراتهم إلى المباريات البعيدة .

كان لدى السيدّ ريتسا ابنتا أخت: تزوَّجت إحداهما طبيب أسنان، لم يكن يكترث بالكالتشيو. أما الأخرى، ماريا تريزا، فتزوَّجت جابرييل جراڤينيا، البشوش الذي جاء إلى الشِّمال، على شاكلة ريتسا نفسه قادماً من إقليم بوُليْآ.
بدأ جراڤينيا بعد زواجه بالعمل عن كثب مع السيدّ ريتسا في الأعمال الإنشائيَّة والمشاريع ذات الصِّلة بها على حدٍّ سواء. وكان فريق كاستل دي سانجرو لكرة القدم يندرج في فئة أحد «المشاريع ذات الصِّلة». عيَّن ريتسا، جراڤينيا مسؤولاً عن النادي، متناسياً كلَّ شيء يتعلق به على الفور.

كانت كاستل دي سانجرو، الصغيرة والمغمورة والمعزولة، صاعدة إلى دوري الدرجة الثانية! معجزة؟ لا ريب في ذلك! حتى إنَّ تلك الكلمة الوحيدة لم تعُد كافية لدى الصحافة الإيطاليَّة، فأعلنت إحدى الصحف قائلة: «دي مِرَاكُلُو إنْ مِرَاكُلُو!»: أي معجزة المعجزات.
ولقد كانت معجزةً عصيَّةً على الفهم، ولا يمكن لأشدِّ المخيّلات جموحاً وحماسةً أن تُدرك كنهها وتحيط بأسباب وقوعها. أدركتُ، في اللحظة التي قرأت عنها، في شهر يونيو سنة 1996، بمجلَّة «جورين سپورتيڤو» -وهي مجلَّة إيطاليَّة متخصّصة في كرة القدم أنْ لا بدٌّ من الذهاب إلى كاستل دي سانجرو، لأكتب عن المعجزة وعما حدث بعدها.

5- في حضرة الرئيس

كانت الساعة العاشرة صباحاً، حينَ وصل السيدّ جراڤينيا إلى فندق وست وسترن. أدهشتني، وأنا أشاهد رئيس النادي لأوَّل مرَّة في وضح النهَّار، وسامته وقامته الممشوقة. وكانت زوجته، ابنة أخت السيدّ ريتسا، تجلس إلى جانبه، وهي امرأة قصيرة وريّانة وذات ابتسامة في غاية العذوبة. أما باربرا، فجلستْ في المقعد الخلفيِّ.

أخبرتني باربرا أنَّ لعائلة جراڤينيا ولدَينْ مراهقَيْن، ولكنهّما لن يحضرا المأدبة لعدم وجود متسَّع لهما في السيارة. ولقد أصرَّ جابرييل على أن يوصلني بالسيارة إلى ﭙسكارا، حيث كان مقرراً أن نتناول طعام الغداء، بالقرب من المدينة التي ستقام فيها مباراة مهمة لفريق كاستل دي سانجرو، الذي لا يمتلك ملعباً مُلائماً يخوض فيه مبارياته الرسمية في هذه المرحلة.

6- جِينز سوفييتي

إذا كانت ثمَّة معالم أخَّاذة في مدينة تشيتي، الواقعة على بُعد بضعة أميال داخل أراضي ﭙسكارا، فلا بدُّ أننَّي قد فوَّتُّ رؤيتها في أثناء اندفاعنا مسرعين إلى الاستاد، وهو كتلة خرسانية كئيبة تتسَّع للعشرة آلاف مقعد المطلوبة. فلم يسبق أن خطر ببالي، بعد مشاهدتي مباريات كأس العالم ودوري الدرجة الأولى في إيطاليا، أنَّ مقاعد استاد كرة قدم قد تترك فارغة. ولكن هنا، خارج المنطقة الفعليَّة لمقصورة كبار الشخصيات، كانت مقاعد خرسانيَّة واسعةٌ، خاليةٌ من المتفرِّجين.

كان مشجعو كاستل دي سانجرو، جهة الشمال، يلوِّحون بأعلام حمراء-صفراء ويطلقون شماريخ ناريَّة حمراء، أما جهة اليمين، فكانت فيها ثلَّة أصغر من المشجعين القادمين من كالابريا في الجنوب لمؤازرة الخصوم، لاعبي فريق كُوزِنْسَا، في المباراة الافتتاحية، ناشرين أعلامهم الزرقاء-والبيضاء، ومُطلقين مشاعلهم النارية الزرقاء.

دخل الفريقان في تلك اللحظة إلى أرض الملعب، فسنحت لي الفرصة كي أنظر لأوَّل مرَّة إلى صانعي المعجزة الذين سوف أقضي معهم التسعة الشهور القادمة.

لا تحمل قمصان لاعبي كرة القدم، في أنحاء أوروبا وأمريكا الجنوبيَّة، اسمَ الفريق وإنمَّا اسم الرَّاعي الرئيس الذي يدفع أعلى مبلغ يُتفاوَض عليه لقاء ذلك.

بيد أنّني، على الرغم من ذلك، قد ذهلت قليلاً حين رأيت أنَّ قمصان لاعبي فريق كاستل دي سانجرو ، الذين دخلوا مهرولين إلى أرض الملعب لخوض مباراتهم التاريخية الأولى في دوري الدرجة الثانية، مكتوبٌ عليها «جينز سوقيبتي». وعرفت لاحقاً أن الاسم يعود إلى شركة تصنيع ملابس رياضيّة موجودة في نابولي. وحين تزداد شهرة فريق كاستل دي سانجرو، فإنَّ النّاس سوف يعرفون «جينز سوقيبتي».

تلقّى فريق كاستل دي سانجرو مكافأة على صعوده؛ مبلغاً يصل إلى خمسة ملايين دولار من الاتّحاد الذي يدير الكالتشيو، ولكنَّ مجلة «لا جازيتاً ديلّو سپورت» نقلت عن جراڤينيا قوله «لسنا إلا مجرَّد فريق فقير قادم من قرية صغيرة في إقليم أبروتسو، ولا نقدر على دفع الأموال للحصول على أفضل اللاعبين».

بدا واضحاً أنَّه قد عقد العزم على خوض غمار البطولة مكتفياً، بالفريق ذاته الذي صعد قبل سنة من دوري الدرجة الثالثة. قال جراڤينيا إنهّم سيعوّضون الموهبةَ التي يفتقر إليها فريق كاستل دي سانجرو بـ قوَّة الأمل. غير أنه استعان لاحقاً ببعض اللاعبين المحليين لتدعيم صفوف الفريق. وبالفعل بدأ الفريق يحقّق أول انتصاراته في مباريات دوري الدرجة الثانية.

7- نزيل الغرفة 8

سأنزل في الغرفة رقم 8، الواقعة في الطابق الرَّابع الذي لا بدّ أن أصعدَ السَّلالَم كي أصل إليه. فليس ثمَّة مصعد، لأنَّ هذا الفندق غير مُصنفَّ ولا حتى بنجمة واحدة.

لم يكن جُوزبّه، مسؤولاً عن «العلاقات الخارجيَّة» لدى «لا سوتشيتا» فحسب، وإنما مراسل الكالتشيو أيضاً، في كاستل دي سانجرو. لعدة صحف، علاوة على تقديمه برنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً للحديث عن إنجازات الفريق.

وهذا يعني أنَّ أي مسألة تتعلّق، بفريق كاستل دي سانجرو، لن تتمَّ إلا حين يقول جُوزبّه ذلك، وهو لن يقول ذلك إلا حين يخبره جراڤينيا بذلك. وقد يُنظر إلى هذه المسألة، في أمريكا، على أنهّا تضارب مصالح.

اشتريت الصحف المحلية الثلاث وأكدت جميعها الطّبيعةَ التاريخية للنصّر الأول، الذي حقّقه كاستل

دي سانجرو، تأكيداً شديداً، فلقد كنا في الوقت الرَّاهن، وربما إلى الأبد، الفريقَ الوحيد القادم من أصغر قرية، الذي يفوز إطلاقاً بإحدى مباريات دوري الدرجة الثانية، والإلهامَ الدراماتيكيَّ الذي تجلَّى في شخص حارس المرمى ماسيمو لوتّي.

8- الكرسي الفارغ والفتية المدلّلون

عاد أزْفالدو ياكوني، مدرب الفريق، ولاعبوه إلى البلدة، عصرَ يوم الثلاثاء، لبدء عمل الأسبوع الثاني من الموسم. سيبلغ هذا العمل أوجه يوم الأحد، في فوجيا، في الاستاد ذاته الذي حدثت فيه المعجزة. ولكنَّ المكان لن يكون محايداً هذه المرَّة: فالخصوم هم فريق فوجيا، الذي خسر 2- صفر في اليوم الافتتاحي، لكنَّ الفرقة سبق وأن خاضت منافسات دوري الدرجة الأولى قبل سنتين فحسب.

لا يوجد مساعدون لياكوني سوى سپينوزا الذي رُقِّيَ حديثاً - لولا «معجزته» التي أنقذت ركلة الجزاء لما كان لأي شيء من هذا أن يكون ممكناً- لذا فهو يقوم بكل شيء بنفسه، من وضع التكّتيكات إلى الإشراف على تمارين المهارات الأساسيَّة حتى جر أكياس كرات القدم جيئة وذهاباً بين غرفة تبديل الثياب والملعب.

ذهبت إلى ملعب التدّريب، فتبادلت التلويح بالأيدي والابتسامات مع مجموعة صغيرة من اللاعبين الذين كانوا يمارسون تمارين الإحماء.

وبات واضحاً بالنسبة إليَّ على الفور أنهم فخورون، بإنجازهم الذي دفع كاستل دي سانجرو، القرية الأصغر في عموم إيطاليا على الإطلاق، نحو الصُّعود إلى دوري الدرجة الثانية، وأنهم سوف يقاتلون حتى الموت لإبقاء الفريق هناك.

9- في فم الذئب

قالت باربرا: «يرغب السيدِّ ريتسا بكل بساطة في أن يرحِّب بك رسمياً في كاستل دي سانجرو، وسوف أكون هناك لأترجم. سألتقيك في مكتب «لا سُوتشِستآ» بالطابق الثالث قبيل الظهيرة بعشر دقائق».

وقبيل الظهيرة بخمس دقائق تماماً، حضر أحد مساعدي السيد ريتسا وأشار إلى باربرا وإليَّ كي نتبعه.

دار اللقاء في جوّ من الألفة، إلى أن قال السيدّ ريتسا إنّنا نستطيع المغادرة الآن، إلا إن كانت لدي بعض الأسئلة، وبالفعل كان السؤال الوحيد حول توجهه إلى فوجيا لمشاهدة المباراة يوم الأحد، غير أن ذلك لن يحدث لأنه لا يحب حضور المباريات التي ربما نتيجتها تكون غير مرضية، وفق ما ذكرته المترجمة باربرا.

ركبتُ صبيحةَ الأحد مع جوزبّه، على الرَّغم من النتيجة المتوقَّعة، إلى الفندق القريب من فوجيا حيث قضى الفريق ليلة الأمس. كان اللاعبون على وشك الانتهاء من طعام الغداء حين وصلنا. كانت مهمَّتي الأولى تتعلَّق بالحاجز اللغويِّ المخيف.

دعاني ياكوني إلى الركوب في حافلة الفريق للذهاب إلى الاستاد. وصلنا قبل ساعة من المباراة، فمشينا سريعاً عبر نفق قصير، شديد الرطوبة، إلى غرفة تبديل الثياب تحت منصة المدرَّجات الرئيسة. وما إنْ ألقى اللاعبون حقائبهم التي تحوي زيَّهم الموحَّد، حتى انطلقوا خارجين إلى أشعة الشَّمس السَّاطعة التي تغمر الملعب.
انضممت إلى ياكوني على وجه السرعة، فلقد مثلَّ هذا الملعب «ملعبَ أحلامهم». فهنا، قبل ثلاثة شهور ، حدثت المعجزة.

10- عرين القائد

كانت السَّاعات الثلاث القادمة كأنهَّا من أحد أفلام ستيڤن سپيلبيرج تماماً. لا أعرف عدد الأفدنة التي قامت عليها الضَّيعة، فلعلَّها بالآلاف أو عشرات الآلاف، ولكنَّ رحابتها ليست بيت القصيد، فخلف بوابتها الفولاذية وسياج الأسلاك الشائكة الذي يحدُّها من كل حدب وصوب، أوجد السيد ريتسا لنفسه عالماً مكتفياً بذاته.

فالمياه تأتي من جداول الجبال، وثمَّة ثلاثة مولدِّات منفصلة للتزوُّد بالكهرباء في حال تعطَّلت خطوط الطاقة الرئيسة لأيِّ سببٍ كان. ولم يكن المنزل الرئيس يتزوَّد بالتدفئة من الحطب فحسب، وإنما من الغاز الطبيعيِّ والطاقة الشمسيَّة أيضاً، وحوى محطَّة وقود خاصَّة لتزويد أسطول سيارات

السيد ريتسا بالوقود، ناهيك عن أنه قد شيد بيوتاً زجاجيّة لزراعة الثمار الاستوائيّة حتى في الظروف الشتويّة التي تقرب من الأجواء شبه القطبيّة. ولديه نساء لا يفعلن سوى الاعتناء بأفدنة من حدائق الخضراوات، ورجال يفعلون الشيء ذاته مع أشجار الفاكهة .ويمتلك بركاً طافحة بأسماك السّلمون المرقّط. والأهم من ذلك كله، الحيوانات التي كانت لديه. إلى الحدِّ الذي غدت فيه ضيعة ريتسا على الأرجح المكان الوحيد في إيطاليا الذي قد يرى فيه المرء هذه النوعية من الحيوانات.

عقب الجولة في الضيعة، عُدنا في وقت الغداء. كان السيد ريتسا ينتظر عند الباب، وبدا واضحاً أنه قد أنهى للتوِّ اجتماع عمل من نوع ما. وعقب انتهاء الغداء، انطلقت في أسألتي إلى السيد ريتسا، الذي سألني عمّا إذا كنت سأقوم بتأليف كتاب عن فريقه.

قلتُ، وأنا أميل إلى الأمام، «لعلَّ مساعديك، يا سيّد ريتسا، لم يحيطوك علماً أنَّني قد فرّطت في مبلغ مليون دولار أمريكي، كنت سأقبضه لقاء تأليف كتاب عن السيدِّ أو. جيه. سِمْسِنْ، لأحظى بشرف الكتابة عن فريق الكالتشيو الذي أوجدته أنت من أجل القرية التي تقع أسفل منا في الوادي.

11- فناجين قهوة في المقهى الصاخب

وبخلاف رؤيتهم في التدريب، أو عند مشاركة العزّاب منهم وجبات الطّعام، فإنّ لقاءاتي المتكرِّرة مع هؤلاء «الفتية» في هذه الأيام المبكرة قد حدثت بمحض الصدفة في البلدة.

قد يكون أحدهم في المقهى الصّاخب والمكتظِّ واقفاً إلى طاولة دائريّة، وناظراً إلى الصحف، ومتجاذباً أطراف الحديث ربما مع زميل له أو مع أحد المعجبين.

بدا اللاعبون، على الرغم من الهزيمة الساحقة أمام فوجيا، غير منزعجين وهم مندفعون إلى التدريب عصر ذلك اليوم، والطّقس مشمس ولطيف كالعادة. ولا شكَّ أنّ إدراكهم بقاء ست وثلاثين مباراة فقط قد ساعدهم على ألا يهوِّلوا من إخفاقات بداية الموسم ونجاحاته وألا يقلِّلوا من شأنها أيضاً، أو ربما كانوا يفتقرون إلى التواضع .

12- تسديدة على الطاير

هكذا، سوف تغدو هذه الشقّة منزلي الجديد في كاستل دي سانجرو. شقة بجوار شقة ياكوني تماماً، كما وعد السيّد ريتسا.

ثم علمت بأنَّ ڤيتو، الذي كان دليلي في ضيعة ريتسا، يعيش في شقة أسفل شقَّتي، إذ إنه يعمل مشرفاً على شؤون البناية. كان رأسي قد دار جرَّاء هذه الانعطافة الفجائيَّة في مسار حظوظي وأحوالي- فسوف انتقل، في غضون أسبوعين، من حالة الغريب تماماً، والأجنبيِّ، في ذلك الوقت، إلى العيش في المسكن الملاصق لغرفة التحكُّم الافتراضيَّة لكالتشيو كاستل دي سانجرو- فقررت، في طريق عودتي إلى مطعم مارتشلَّا، أن أمازح ياكوني.

كانت الغيوم قد أخذت تحتشد، عصرَ يوم الأحد في تشييتي الواقعة عند مستوى البحر، ثم غدا الطَّقس، بحلول الساعة الرابعة مساءً، حاراً وشديد الرُّطوبة.ولم يكد الفريق يدخل إلى أرض الملعب، حتى تقوقعت فيما بدأت أدرك أنهَّا شرنقة البؤس الحتميَّة التي سوف تلازمني قبل أي مباراة. كنت أعاني من توتُّر لا يكاد يحتمل.

وفي الدقيقة التاسعة والخمسين، وصلت الكرة إلى بونومي، وبعد أن سدَّد على الطَّاير وهو يركض، سجل بونومي هدفاً! لقد تمكَّنا، في النهاية، وبعد 237 دقيقة من اللعب (منذ بداية الموسم)، من تسجيل هدف حقيقيٍّ، دون أن يكون جراء ضربة جزاء. وتمكَّنا في هذه الأوقات من هزيمة فريق لعب بدوري الدرجة الأولى في السنة الفائتة .
فهل من الممكن أن تحدث معجزة أخرى، معجزة أعظم؟

13- العناصر الثلاثة
انتقلت إلى شقَّتي الجديدة. وكي أضفي على غرفة المعيشة أجواء عائلية، أحضرت معي جزءاً كبيراً من مجموعة أوشحة الفرق من جميع أنحاء العالم.
دلف ياكوني إلى غرفة المعيشة، ونظر إلى صخب الألوان واللغات المعلقة عامودياً من خطِّ السقف تقريباً، ثم ذرع زوايا الغرفة الأربع على مهله، كأنه في متحف. ونظر إليَّ، صافراً بنعومة، وهزَّ رأسه رويداً من جانب إلى آخر، ثم خرج دون أن ينبس ببنت شفة.

لم أعرف إن كان قد تأثّر أو بدأ يخشى احتماليَّةَ أن أكون غير متوازن على نحو خطر. فهو لم يعرف أمريكياً قَطُّ من قبل، ومما لا شك فيه أننَّي لم أوُافق الصورة النمطيَّة التي في باله.
دعاني ياكوني، بعد عشاء تلك الليلة، إلى شقته. لقد كنت غائباً لثلاث مباريات، وتدهورت الأحوال واشتدت سوءاً، فكان من المهمِّ -كما قال- أنْ أفهم بعض الحقائق.

حافظ على بساطة مفرداته، وكنت قادراً على فهم النقاط الرئيسة التي أثارها. وبدت المسألة الأهم، تتمحور حول أنه لن ينجح في كاستل دي سانجرو إلا اللاعبون الذين يتمتَّعون بقَدْر فائق من العزيمة والالتزام؛ ولا بد أن تكون الكالتشيو، في كاستل دي سانجرو، حياتكَ لا مهنتك فحسب.

14- اللاعب الثاني عشر

لم تُؤثّر الأصوات التي تعالت خلف أبواب «لا سوتشتا» الموصدة في موقف ياكوني تجاهي، ولا حتى في موقف اللاعبين. بدا كأنَّ اعتقاداً ساد، في أثناء غيابي، أنَّني قد أكون تميمة تجلب الحظَّ السَّعيد. ولعلَّ ياكوني، لهذا السَّبب، قد دعاني إلى الركوب في حافلة الفريق المتوجِّهة شمالاً لخوض مباراة إمپولي .

ولقد تعزَّز هذا الانطباع حين شاهدت جوزبّه في صحيفة «إل تشِنتْرُو . بنى مقالته، تحت عنوان أبدى اهتماماً بعودتى، حول أنَّ الفريق قد فاز بمباراتيْن حين كنت موجوداً، في حين خسر المباريات الثلاث التي خاضها، عندما كنت غائباً. كتب قائلاً: «ولذلك، سيكون لدى ياكوني، في إمپولي، لاعبٌ إضافيٌّ».

15- رجل الستة ملايين دولار

كان ثمَّة قلق محدق يتعلَّق بأنَّ الفرقة لم تُظهِر أنهَّا جديرة باللعب في دوري الدرجة الثانية، وقد انقضى قرابة 20% من وقت الموسم. احتللنا في الوقت الرَّاهن المركز الرابع عشر؛ الأمرا لذي سوف يكون مدعاة إلى الاحتفال لو أننا في نهاية الموسم، ولكنَّ الطريق أمامنا ما زالت طويلة، وليس لدينا إلا بضعة لاعبين بدوا قادرين على أن يأخذونا نحو المكان الذي علينا الذهاب إليه.
كان من بين هؤلاء اللاعبين، رجل الستة ملايين دولار، المعروف باسم أندريا پستلّا، الذي يُعَدُّ الدَّليل الأوَّل في دفاع جراڤينيا ضدَّ إنفاق الأموال (افتراضياً)على شراء لاعبين مجرَّبين. لكن من الواضح أنَّ پستلّا، المغُالَى في ثمنه، كان الأسوأ.

16- الوافد الجديد

وصل جوزيف آدو، الذي لم يكن عضواً في المنتخب القومي الغانيِّ فحسب، وإنما قائده أيضاً. وقف

لالتقاط الصور الفوتوغرافيّة، وأجرى عدداً من المقابلات الصحافيّة والتلفزيونيّة، حال وطأت قدماه أرض ملعب التدريب. استمتعت بالإنصات إلى تلك المقابلات، لأنّني فهمت إنكليزيّته التي لا عيب فيها.

ثمّ بدأ التدريب. ولكنني، بعد ساعتيَن، كنتُ أطير من الفرح، حين غادرت ملعب التدريب، برفقة المئات الآخرين من مشجّعي كاستل دي سانجرو الذين حضروا لرؤية الوافد الجديد. فآدو يمتلك لمسة فطريّة في التعامل مع الكرة، لن يستطيع محاكاتها أحد من لاعبينا ولو حاول طيلة الوقت الذي تبقّى من حياته. ولقد أظهر أيضاً، في اشتباك قصير بين أعضاء الفرقة، أنهّ يعرف بالفطرة مكانه الأفضل وهو يراقب اللعب ينفتح ويتدفّق من حوله ونحوه.

17- مباراة كارثية

غيّر أحدهم مسرح الأحداث بلمح البصر. ولم يكن التغيُّر الذي طرأ على الأمزجة أقل دراماتيكيّة، فالنشوة التي أعقبت فوزنا على پادوڤا دامت يومَيْن بالضّبط: إذ لم يعرف اللاعبون أنّ جوزيف آدو لن ينضمّ إليهم في نهاية المطاف.

أصابتهم الحيرة، في البدء، ثمّ عمّهم الغضب. حين علموا أن جراڤينيا لم يكن غير شريف فحسب، وإنّما بخيل أيضاً. لقد غادر آدو، لأنّ «لا سوتشستا» رفضت أن تدفع له ما يستحقّ.
ولم يكن وجود جراڤينيا الدائم على نحو مفاجئ في ملعب التدريب ذا تأثير مهدّئ. لم يكن رئيس النادي، بالطّبع، غريباً على الحصص التدريبية، ولكنه كان يظهر في معظم الأسابيع، مرّتيْن أو ثلاث مرّات، ثم يغادر في غضون عشرين أو ثلاثين دقيقة.

ولكنّ «الرئيس» الذي يبدو الآن متوتّراً ومهموماً قد بدأ يوجد بصورة دائمة في دكّة الاحتياط بملعب التدريب. وتحوّلت حيويّته إلى نكَد، كأنه كان، من الناحية الذهنيّة، يتلفّت من حوله مرتاباً، متوقعاً الأسوأ.

في المباراة التالية لغياب آدو، بدأ النزال الذي كان كارثياً بكل المقاييس، كأنّ الفرقة كلّها قد تآمرت مسبقاً على أن يحرص كل لاعب على تقديم أسوأ أداء عنده.
وقبل أن يدخّن نصف سيكاره، وقف السيدّ ريتسا ممتعضاً، ثمّ لوّح إلى حرّاسه الشّخصيين، ومشى مبتعداً دون أن يودّع أحداً ودون أن يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة إلى ياكوني.

18- مسرح عبث الماركيز دو ساد

شعرت على نحو أوضح برغبة جراڤينيا المعلنة، في توظيف نجاح كاستل دي سانجرو، وما أعقبه من لحظات شهرة، نقطةَ انطلاق لطموحاته الشخصيَّة الأكبر.

ثم أضحت المعادلة، في نهاية المطاف، بسيطة على هذا النحو: عدم وجود استاد يعني عدم وجود مستقبل سياسي لجابرييل. لذا، فإن تشييد الملعب الجديد والستة آلاف مقعد الإضافية، كانت المستحقَّات التي توجَّب عليه دفعها للدُّخول في زمرة الطَّامحين المقبولين.

على صعيد موازٍ، قام جراڤينيا، في محاولة لإصلاح الضَّرر الذي أحدثه إقصاء آدو، باستقدام لاعب يلعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، يدعى لوقا ألبيري، كان متأكِّداً من أنَّ ياكوني لن يوافق عليه، على الرَّغم من أنهَّ مولود في إيطاليا، لأنهَّ لا يرقى إلى المعايير الضروريَّة التي يشدِّد عليها.

19- بطاقة حمراء

بدا الوقت سانحاً لأعرف إنْ كان ألتامورا، جاري الذي يسكن في الطابق العلويِّ، يتمتع بخفَّة الظلِّ أم لا. وكان ولدي جيمز قد أهداني، عدَّة حكم أصليَّة، تتكوَّن من بطاقة حمراء، وبطاقة صفراء، ولوحة يستطيع المسؤول التسجيل عليها اسم اللاعب المخالف، وطبيعة المخالفة، وهكذا دواليك.

نهضتُ مبكِّراً صبيحة الاثنين، ثم خرجت إلى سيارة ألتامورا المركونة عند حافَّة الرصيف. وضعت البطاقة الحمراء تحت المسَّاحة الأماميَّة، وخربشتُ عليها العبارة التالية بالإيطالية: «كنت أنوي أن أعطيك هذه البطاقة يوم أمس، برفقة البطاقة الأولى».

كان وقع خبر انضمام اللاعب الذي اشتراه جراڤينيا بملبغ كبير من فريق «ليستر سيتي»، في الدوري الإنكليزيِّ الممتاز، النيَّجيري روبرت راكو يونيك، إلى فريق كاستل دي سانجرو. على البلدة صاعقاً.

أُذيعت الحكاية في نشرات الأخبار الوطنيَّة عند الظهيرة. لقد هزَّ فريق كاستل دي سانجرو الصغير، فريق «المعجزة» و«الحكاية الخرافيَّة»، العالَم مرَّة أخرى. أرسلت وكالة الأنباء الوطنية الإيطالية خبر العقد الذي أبرمه يونيك إلى العالم أجمع. انهالت المكالمات الهاتفيَّة على مكتب «لا سوتشتا» من الصحف والمجلات القوميَّة، تطلب جميعها حجز مقاعد خاصَّة كي يشهد ممثِّلوها مباراة يونيك الأولى.

و كانت المفاجأة الكبرى، كان كل منحى من حكاية پونيك مفبركاً. فليس ثمَّة، ولم يكن ثمَّة على الإطلاق، لاعب يدعى روبرت پونيك في فريق «ليستر سيتي»، ناهيك عن شراء كاستل دي سانجرو واحداً بهذا الاسم. ومما لا شك فيه أنَّ پونيك لم يكن حتى نيجيرياً، وإنمَّا ممثّل ولد في لندن وترعرع فيها .

كان الأمر في غاية السُّوء، وانفجر الأمر برمَّته في وجه جابرييل، صبيحةَ اليوم التالي.
لم يجعل جراڤينيا من نفسه أضحوكةً فحسب، ولكنهّ جلب العار أيضاً إلى «لا سوتشتا » وإلى لعبة كرة القدم ذاتها، وهي مسألة لم تكُن لِتُؤخذَ في إيطاليا على سبيل المزاح بتاتاً.

20- جيمز بوند في دوري الدَّرجة الثَّانية

توجب على العاملين لدى «سوتشتا»، في أثناء الرحلة من روما، السَّير في رواق الطائرة، وتوزيعُ نسخ من كتاب وضعه جراڤينيا. كان العنوان «فرقة خاصَّة: عمليَّة التعَّاطُف، مغامرة في دوري الدرجة الثانية». أظهر الغلاف رسمة لجراڤينيا على هيئة جيمز بوند؛ العميل السريّ.

كانت غاية العمليَّة استدرار العطف لفرقة كاستل دي سانجرو، فقد بدا الكتاب المصوَّر بطريقةً غير مألوفة، للتعبير عن ذلك. لقد بدت، في أعقاب الخيبة التي تسببَّت بها حادثة راكو پونيك، مُبتذلةً إلى حدّ السخافة.

وُزِّعَتْ، في اليوم التالي، عند الاستاد القديم المتداعي، آلاف النُّسخ الأخرى من الكتاب المصوَّر على مشجِّعي فريق ريجينا الذين نبذوه على الفور، بعد أن مزَّقه بعضهم إلى نصفين، في حين بصق عليه آخرون.

21- الرَّاعي الجديد

استقال جراڤينيا من رئاسة «لا سوتشتا». مستحيل! لا يصدَّق! لا يمكن تصوُّر ذلك! لم أكن لأُدهش على هذا النحو حتى لو أعلن البابا اعتناقه البوذيَّة. ولكنَّ الشك خامرني على الفور باحتماليَّة أن يكون الأمر مجرَّد خدعة أخرى. وأن يكون محاولة من طرف جراڤينيا لتحقيق مزيد من الدعاية في الأيام التي تسبق افتتاح الاستاد الذي طال انتظاره.

أعلن جراڤينيا، أنه سيظل منهمكاً في شؤون الفريق، وفقَ لقبه الجديد، «الرَّاعي»، وخلفه في الرئاسة سيكون رجل يدعى لوتشيانو روسِّ، يشغل منصب رئيس جامعة تيرامو.
لأوَّل مرة يفصح جراڤيينا، في الصحافة المطبوعة، عن إمكانيَّة اتِّحاد عالميَ الأكاديميا وكرة القدم، وهي مسألة كانت من بين أهداف منذ سنينَ عديدة.

22- حكم بالصدفة

بدا شهر سبتمبر الآن كأنه قد ضاع في سُدُم التاريخ، ولكنَّ فريق كاستل دي سانجرو لم يخض حتى الآن مباراة إيابٍ حقيقيَّة واحدة، ولن يتمكن من ذلك حتى الخامس عشر من شهر ديسمبر على الأقل، بصرف النظر عن السرعة التي قد يشتغل بها ياكوني، الخبير القادم من الشمال ومدى النجاح الذي سوف يحقِّقه، لأننَّا سوف نرتحل يوم الأحد إلى البندقيَّة.

كان ياكوني قد حدَّد عصرَ الجمعة لإجراء تدريب خفيف. واقتصر التدريب بصورة أساسيَّة على مباراة خُماسيَّة، فوجدتُ نفسي فجأة الحكم، حين ألقى إليَّ ياكوني ساعة التوقيت وصافرته. قال لي إنه يرغب في الجلوس والمشاهدة؛ في التَّركيز على نقاط القوة والضَّعف الفرديَّة بين لاعبي الفريق، ولهذا فقد احتاج إلي لأقوم بدور الحكم.
لا بُد أنه كان يفعل ذلك كي أرى اللعبة من منظور مختلف وأصعب؛ أن أقُرِّ في التوِّ واللحظة ما يُعَدُّ مخالفة، ومتى أمنح ضربة جزاء، ومتى أحكم على اللاعب بأنه قد وقع على الأرض متعمِّداً، متظاهراً بتعرُّضه للعرقلة.

تُعدُّ البندقيَّة المدينة الأقل ارتباطاً بالكالتشيو، إلى حدٍّ كبير، من بين المدن الكبيرة في إيطاليا. وكنت أدرك أنَّ كثيراً من الأمريكيِّين يأتون إلى إيطاليا، يزورنها، ثمَّ يغادرون؛ دون أن يربطوا أياً من مدنها الكبيرة بالكالتشيو. كانت المسألة بالنسبة إلى الكثيرين مجرَّد سمة أخرى من سمات إيطاليا العصيَّة على التفسير.

23- الحادث المأساوي

مات لاعبان من الفريق. لقيا مصرعهما في حادثة سيارة على الطريق السريع جنوبي فلورنسا في طريق عودتهما مسرعين إلى كاستل دي سانجرو، كي لا يتأخّرا على التدريب.

حين راحت العتمة تُرخي سدولها، تذكَّرت فجأةً مهمَّتي القصيرة التي أدَّيت فيها دور الحكم. فاكتسح الحزن قلبي، في تلك اللحظة التي غامت فيها الذَّاكرة، بضراوة، على أشدّ ما يكون. لقد حكَّمتُ آخر مباراة لعب فيها پيُّو ، ودانيلو، وعندما تذكَّرت تلك اللحظة دمعت عيناي.

أُقيمت مراسم الجنازة، جرياً على العادة الإيطالية، في اليوم التالي. حمل اللاعبون، النعشَيْن على طول الكيلومترات الثلاثة من الاستاد إلى الكنيسة في منتصف السَّاحة.

دُفن الجثمانان في الصَّباح التالي: پيُّو في فلورنسا ودانيلو في روما. واستؤُنفَ التدريب عصر ذلك اليوم. لعبنا مباراة ضدَّ لوكيزي، انتهت بالتَّعادل، صفر- صفر، وخسرنا ،-1 صفر، في تورينو. ثم حان وقت أعياد الميلاد المجيدة ،فعدتُ إلى الدِّيار.

24- دوري الأبد

توترَّتُ في اللحظة الأولى التي وَطَأت فيها قدماي أمريكا. فلقد هبط فريق كاستل دي سانجرو إلى المرتبة الأخيرة؛ خضنا ستَّ مباريات متتالية من دون تسجيل أهداف، ولم نتمكَّن من تسجيل سوى خمسة أهداف طيلة الموسم.

المغامرات التي خضتها هناك، والحياة التي عشتها والأزمات التي قد أواجهها عند عودتي إلى أمريكا لا يمكن تفسيرها ببساطة. ولكنني شعرت، على الرغم من ذلك، أنَّ حياتي الحقيقية ستكون في الطرف القصيِّ من الباب.

لم تكن المسألة كأنَّني توقَّفت عن حُبِّ عائلتي؛ فلقد اشتقت إلى زوجتي وولديَّ، حين كنت في إيطاليا، اشتياقاً عارماً جعلني أشعر في بعض الأحيان بالإحباط والعجز. بتُّ أفقد، شيئاً فشيئاً، تلك القواسم المشتركة التي كانت تجمع بيني وبين أولئك الذين كانوا أصدقائي الحميمين في السَّابق، وبتُّ غير مكترث بالحياة العموميَّة في أمريكا.كان قلبي وعقلي مع فريقي.

ولكنَّ حضوري كان مطلوباً في أمريكا حتى منتصف شهر يناير، وهو الوقت الذي حدثت في غضونه «معجزة كاستل دي سانجرو» للمرَّة الثانية. حيث حصلت الفرقة على تسع نقاط، من ثلاث مباريات خاضتها في غضون أحد عشر يوماً، بعد أن لم تُجمِّع قبل ذلك سوى إحدى عشرة نقطة في 111 يوماً، ورفعنا النشاط المفاجئ من المرتبة الأخيرة إلى المركز الثاني عشر.

25- الصفقة

من الواضح أنَّ موت پيو ودانيلو قد ألهم كلاوديو، لإعادة تكريس نفسه لكرة القدم. أفضى هذا التَّركيز والشَّغف الجديدان إلى درجة كبيرة من التحسُّن في الأداء.

أشارت صحيفة محلية، إلى أنَّ نادي فيورنتينا يرغب في بيع المخضرم بايانو واستبداله بكلاوديو. وحين وصلت إلى التدريب قبل نصف ساعة، شاهدت كلاوديو قد سبقني إلى هناك.

انهملت عينا كلاوديو فجأة، ثم قال «شكراً، يا جُو العظيم. سأفتقد الجميع». لقد كان الخبر صحيحاً إذاً، ثم جاء جابرييل فجأة يخطو في الممر بأقصى سعة. جذب كلاوديو من كوعه، بفظاظة، وأدخله إلى المكتب، ثم صفق الباب خلفهما على وجه السرعة.
ثم جاء جوزبّه بعد دقيقتَين، وقال: «ليس صحيحاً. لن يُباع كلاوديو. لن يحدث ذلك مطلقاً. وسيكون الأمر في غاية السوء بالنسبة إلى إدارة النادي لو أخبرت الناس أنَّ الخبر صحيح».

علمت، في هذه اللحظة، أنَّ جراڤينيا قد تلقَّى عرضاً بقيمة مليون دولار، ولكنَّه أصرَّ على 5.1 مليون دولار، ثمَّ رفع فيورنتينا المبلغ إلى 2.1مليون دولار، ولكنَّ جراڤينيا لم يتزحزح عن موقفه. وفشلت الصفقة.

26- البيضة الشرقية والبيضة الغربية

اقترب مني لوتِّي، قائلاً إنَّه يشعر بإحباط شديد لرفض ياكوني حتى التحدّث إليه، ناهيك عن السماح له باللعب ثانيةً، وأنَّه مستعد لمغادرة الفريق، بل ومغادرة إيطاليا أيضاً، لو ضمن موقعاً لدى فريق من الدرجة الأولى في أي مكان آخر، ثم سألني عن دوري المحترفين الجديد في الولايات المتحَّدة.
وكان الفريق الوحيد الذي تربطني به علاقة ما هو: «نيو إنجلاند ريڤولوشن»، بيد أنَّ هذه الصلة ضعيفة لكونها مبنيَّة في الأساس على معرفتي بلالاس الذي كان يلعب في هذه الأثناء هناك. وأخبرني وكيل أعمال لالاس، أنَّ المدير الجديد، توماس رونجن، قال إنَّه في أمس الحاجة إلى حارس مرمى من الطراز الأوَّل.

وهكذا اقتحمتُ، لفترة وجيزة، عالم وكلاء الأعمال. أرسلت رسالة حماسيَّة بالفاكس إلى رونجن بشأن لوتِّي، فردَّ على الفور، حاثاً لوتِّي على أن يرسل إليه أشرطة ڤيديو لبعض المباريات.

27- مباراة على الماء

جاءت الصَّدمة حين دخلت عبر بوَّابات الاستاد ونظرت إلى الملعب. كان مغموراً بالماء تماماً. ولكن لا شيء في هذا اليوم سوى الغضب حين علم اللاعبون واحداً تلو الآخر، من العمال، ما الذي جرى. كان جراڤينيا -الذي بدا، على الرغم من «استقالته»، أكثر انهماكاً في إدارة الأمور من أي وقت مضى- قد أرسل طاقم عمال، تحت جنح الظلام، لإغراق الملعب بالماء، خشيةَ أن تكون فوجيا تمتلك فريقاً أفضل وأقوى وأسرع .

من الواضح أنَّه كان يأمل في أن تُبطل تلك الأرضيَّة المبتلَّة، والطَّرية، والزلقة، تفوُّقَ فوجيا. كانت هذه صفعة في وجه كل لاعب في الفريق. لقد كانت طريقة جراڤينيا، في إخبارهم -على الرَّغم من المعجزة، وعلى الرَّغم من أدائهم المدهش في شهر يناير، - بأنْ لا فرصةَ لديهم بالفوز في منافسة عادلة.

جعلت هذه الفعلة من النهار البديع، والشمس الدافئة، والمعنويات التي كانت ترتفع على نحو ساذج، تبدو كأنها مهزلة. وجعلت مثاليات كرة القدم الرفيعة، التي لطالما تبناها جراڤينيا في كل مرَّة تتاح له فرصة الوقوف أمام مايكرفون أو كاميرا تلفزيونيَّة، تبدو كأنَّها مهزلة.
في النهاية، فاز فريق فوجيا ،1-3. لقد كانت أسوأ مباراة خضناها على أرضنا في مرحلة الإياب بهذا الموسم، ولم يكن ذلك مفاجئاً، نظراً إلى حالة الصَّدمة التي انتابت اللاعبين حين شاهدوا منظر أرضيَّة الملعب.

28- الرجل الذي لا يذكر أسمه

اقتحمت شقة اللاعب جيجي قوة من ضبّاط إنفاذ القانون، واقتادته مقيّداً بالأصفاد إلى السجن. وُجِّهت إليه تهمة الانتماء إلى عصابة دوليَّة، مقرُّها في تشيلي، مُتهَّمة بأنَّها قد هرَّبت كوكايين ًإلى إيطاليا. وعرفنا كذلك أن جراڤينيا، قيد تحقيق جنائيّ، ويواجه اتِّهامات خطيرة، مفادها أنَّه قد مدَّ يد العون لعصابة التهريب و حرَّض على القيام بذلك. ويعتقد أنَّ جيجي وجراڤينيا عضوان بارزان في المنظمة الإجراميَّة.

وهكذا كنا الفريق الوحيد الذي يوجد مدافعه في السِّجن، وثمَّة شبهة علنيَّة بتورُّط رئيسه السَّابق في عمليَّة تهريب مخدَّرات تقدَّر بـ 20 مليون دولار في السَّنة.

29- عودة جيجي

ساءت الأمور. جراڤينيا يخضع لتحقيق ليس للمساعدة على تهريب الكوكايين إلى البلاد والتحريض على ذلك فحسب، وإنمَّا بسبب توفيره لبعض لاعبي فريقه لاستخدامه في الحفلات الماجنة.

علمتُ، في رحلة الحافلة، أنَّ جميع اللاعبين، بلا استثناء، كانوا يتوقَّعون إطلاق سراح جيجي الوشيك.
ولكننَّي لم أكفَّ عن ترديد سؤال:
«على أي أساس»؟ مرَّات ومرَّات.. لم يرغب أحد في القدوم إليّ وإخباري بالحقيقة.

ولكنَّ الخبر قد تسَّرب في النهاية، مخترقاً وجهة نظري الأمريكية المحدودة عن أنظمة العدالة الجنائيَّة، بأنَّ السيدِّ ريتسا يستطيع ترتيب ذلك بمكالمة هاتفيَّة.
بالفعل حدثت عودة جيجي المظفرة. وأشرف جراڤينيا المسرور بعودة جيجي، على الاستقبال، وحُمِّل أطفال مسؤولي «سوتشتا» لافتات كتب عليها «نحبُّك، يا جيجي» و«لم نفقد الأمل البتة».

30- طريق الخلاص

شهر إبريل، في دوري الدرجة الثانية، في إيطاليا، يعني الوقتَ الذي تتبدَّل فيها الحالة من الشَّرْطيَّة إلى الخبرية، وتتحوَّل صيغة الفعل من المستقبل إلى المضارع.
تبدأ الصحف بنشر المربعَّ الإحصائيِّ «الطريق إلى الخلاص »، الذي يبُيِّن المباريات التي لم يلعبها بعد كل فريق من تلك الفرق التي لا يزال الخلاص بالنسبة إليها موضع شك، وفيه يمكن لـ «الموسم الطويل» أن يبدو، فجأةً، قصيراً جداً.

وبما أننَّي لم أكن راضياً عن الطبيعة البدائيَّة للتحليلات الإحصائيَّة المنشورة في الصحف، فقد بدأت أحلِّل بنفسي. شعرت أنَّ أكثر التَّحليلات صلة بالموضوع لا تعرض سوى مجموع النقاط التي حصل عليها منافسو الفريق المستقبليُّون.

لم يتوقَّع أحدٌ أن نضيف نقاطاً إلى مجموعنا في الأسبوع التالي، ولكنَّا لم نُضِف شيئاً. لعبنا في بريشَّا، أقبح المدن في الشمال، ضدَّ فريق يتقدَّم خمس نقاط على ليتشه في صدارة اللائحة. كان من الواضح أنَّ بريشَّا على وشك أن يحقِّق واحدةً من عوداته الموسميَّة إلى دوري الدرجة الأولى، وكنا الفريق المتواضع الذي سيكون بمثابة لقمة سائغة، يُمهِّد الطريق أمامهم .

31- ذيل الحصان المقدس

لم أعد من بريشّا مع الفريق، فلقد دُعيت إلى حفل العشاء السنويّ لجوائز «جورين سپورتيڤو» في الليلة التالية. كانت هذه الدّعوة في إيطاليا أقرب ما تكون إلى تلقّي المرء دعوة إلى حفل جوائز الأوسكار. عشاء باذخ يقُدَّم إلى مئات المدعوّين في قلعة شيدّت في القرن السادس عشر، في الريف خارج بولونيا، حيث تُقدَّم جوائز من طراز: «أفضل لاعب» و«أفضل مدير فنّي».

نشرَت المجلة مؤخراً مقالة حولي، ولا بد أنهم قد عدُّوني شخصيّة ثانويّة لكنها مشهورة. بيَد أنّ لديَّ أسباباً أخرى لرغبتي في أن أكون هناك؛ أهمها رؤية ذيل الحصان المقدّس "باجيو"، أكثر من أي شيء آخر.

كان باجيو يواجه موسماً صعباً، ولم يتغلّب على صدمة إهداره آخر ضربة جزاء في بطولة كأس العال سنة 1994، فسمح لفريق البرازيل بالفوز بالبطولة.

ولقد التقيت باجيو في الواقع لفترة وجيزة حين كنتُ في پادوڤا برفقة ألكسي لالاس. وصل يوڤنتوس ليلةَ السَّبت لخوض مباراة ضدَّ پادوڤا في اليوم التالي، وبعد أن مارستُ درجةً من الإلحاح بلغت حدَّ الهوس، سُمح لي بالتشرُّف بلقائه لعشر دقائق في الفندق الذي كان ينزل فريق فيه فريق يوڤنتوس .

من الصَّعب وصف شغف المشجعين الطليان المتعصِّبين لباجيو؛ فهو بطل شعبيٌّ إيطالي تتخطَّى شعبيته حدود الانقسام المرير بين الشمال والجنوب الذي يمزّق البلاد، ويبدو أنَّ نجاحه، وسلسلة المذلّات التي فرضها عليه قَدَرٌ قاس لا يرحم، قد عملا معاً على تعظيم درجة التمّجيد المُفرط التي يُلهمها.

32- أفعوانية ياكوني

قال ياكوني قبل شهور إنّ الموسم سيغدو مثل ركوب الأفعوانيّة، نظراً إلى التّباينُ الواضح بين اللاعبين في هذا الدوري. وكانت ثمّة أفعوانيّة ياكوني الخاصّة، أيضاً، التي يبدو أنها عملت وفق آليّة مختلفة تماماً. كان يبدو متجهّماً وكئيباً في بعض الصباحات، ثمَّ يغضب غضباً شديداً في وقت الغداء، حتى يكاد الشّرر يتطاير من عينيه، ثم يغدو فجأة، في منتصف الظهيرة، مرحاً وصخَّاباً، ثم يُجنُّ جنونه في لمح البصر ثانيةً، إلى درجة اعتقادي أكثر من مرّة أنه على وشك أن يضرب اللاعبين.

لو أدرك مقدار الاحتقار الذي يكنّه له معظم اللاعبين، لما تحدَّث بشأنهم معي. ولكنه لم يتكلم مراراً إلا عن احتقاره وازدرائه وبُغضه ونفوره وعدم احترامه لكل واحد منهم، ما عدا الثلَّة التي يعدُّها الحرس القديم.

وربما يظنّ المرء أنَّ فوزنا على ريجينا، الذي أبقانا متشبثين بأظافرنا بموضع مُصنف فوق منطقة الهبوط إلى دوري الدرجة الثالثة. قد جلعنا نشعر براحة مؤقَّتة على الأقل من التوتُّر والاضطراب اللذين استنفدا طاقتنا شيئاً فشيئاً من جرَّاء خبر اعتقال جيجي.
ولكن إطلاق سراحه السَّريع لم يعمل البتة على التخفيف من تلك المشاعر، بل زاد من حدَّتها بالنسبة إلى الكثيرين. بدت الفوضى برمتها وقد أفسدت العزم والجسارة والشرف الذي صعد بالفريق إلى دوري الدرجة الثانية.

33- المرِّيخِي

ذات صباح في ربيع 1893، أحضر مجموعة من البحَّارة البريطانيِّين، الذين مضى على وجودهم وقت طويل في الميناء، كرةً جلديَّةً إلى الشَّاطئ في جنوا، وراحوا يركلونها في الجوار. كانت منطقة الرَّصيف تعجُّ كالعادة بالمتبطِّلين الإيطاليين الذين يحتسون القهوة، ويطلقون تعليقات بذئية حول النسِّاء، ويفتشِّون عن جيوب ينشلونها. قال الإيطاليون بعضهم لبعض، بعد مشاهدتهم البحَّارة وهم يركلون الكرة جيئة وذهاباً لنحو خمس عشرة دقيقة: «يمكننا فعل ذلك أفضل منهم»، وهكذا ولد الكالتشيو.

لقد كان الترحال، بعد 104 سنوات، إلى المكان الذي بدأ فيه الكالتشيو، للَّعب ضدَّ نادٍ يمتدُّ تاريخه إلى أكثر من مئة عام، مسألةً مُبهجةً، ومثيرة للخوف على حدٍّ سواء. ولم تسهم حقيقة أننَّا قد هزمنا جنوا ،1-1 صفر، في التخّفيف من حدَّة الموقف. ولكنها، على العكس، رفعت درجة المخاطرة قليلاً.

كان فريق جنوا قد بلغ مرتبة عالية بما يكفي ليذيع صيته. هبط قبل سنتين إلى دوري الدرجة الثانية بعد خسارته أمام پادوڤا في مباراة فاصلة في التصفيات النهائيَّة التي أقيمت بعد انتهاء الموسم النظاميِّ لتحديد الفرق الهابطة. وكان فريق جنوا، منذ تنظيم دوري الدرجة الأولى في العام 1929، عنصراً أساسياً في القسم العلويِّ، مُحقِّقاً سجلاً تراكمياً من بين أفضل عشر فرق في إيطاليا.

وهكذا فعلنا. لقد فاز كاستل دي سانجرو، القادم من ضيعة جبليّة صغيرة ومجهولة في إقليم أبروتسو، بمباراة في الاستاد العائد لأعرق فريق في عموم إيطاليا، وصاحب التاريخ المجيد. في هذا اليوم، وفي هذا المكان، وفي ظلّ هذه الظروف، ورغم كل الصُّعوبات، جدَّدت المعجزة نفسها.

34- فيلم سينمائي

ليس ثمّة إطراء يمكن للمرء أن يسبغه على حدث أو أداء حيٍّ من أي نوع، في إيطاليا، أكثر تقديراً من قولك إنهّ بدا كفيلم سينمائيٍّ. كانت هي العبارة التي أسبغتها عدَّة صحف قوميّة على المباراة التي خيضت في جنوا.

كنا نتقدَّم على ستة فرق في ترتيب النقاط، ولم يبقَ سوى سبع مباريات، وكنا نقترب من فريق البندقية، صاحب المركز الحادي عشر، كمثل اقتراب أقرب منافسينا منا. ولقد كان فريق البندقية الفريقَ الذي سوف نلعب ضدَّه على أرضنا.

إذا فزنا، فسوف ننتقل في الحقيقة إلى المركز الحادي عشر متعادلين مع البندقية، هنا أتحدَّث عن ارتقاء المعالي التي لم يُحلَم بها من قَبل. ولأن فريق البندقية لم يسبق له أن فاز خارج أرضه إلا في مباراة واحدة طيلة الموسم، وكنا قد بلغنا أعلى ذروة وجدانيّة استطعنا الوصول إليها، فإنَّ النصّر بدا في متناول أيدينا. غير أن النّتيجة كانت تعادلاً مُحبطاً وباهتاً، 1-1. وبدونا غير قادرين على النِّزال.

35- كاتب أميركي مجنون

كانت حقيقةُ وجوبِ أن أغادر كاستل دي سانجرو، حالَ انتهاء المرحلة النهائية، أسوأَ من خوف ألا تنتهي هذه المرحلة على خير. فبعد نهاية الموسم، وسواءً فزنا بـ «الخلاص» أم لم نفز، فإنَّ نهاية مهمّتي القصيرة في الكالتشيو سوف تحل.

سأعود إلى أمريكا، تاركاً خلفي كل الشَّغف والصَّداقات المتينة التي منحتني الحياة منذ سبتمبر. لقد ظهرت هويّتي الخاصَّة مرتبطة كلياً بهوية البلدة والفريق اللذين لم أتخيلَّ مستقبلاً من دونهما. فالـ «أنا» التي كانت «نحن» لتسعة أشهر مجيدة، إن لم تكُن عاصفة، ستغدو «أنا» وحيدةً وبائسة مرَّة أخرى .

ولا بد من القول، إنَّ وضعي في كاستل دي سانجرو قد أضحى متقلقلاً، بطريقة أو أخرى، إلى حدٍّ كبير، فكلما تعلَّمت المزيد من اللغة، ازداد طيشي في استخدامها.

وكلما زاد هوسي بالـ «خلاص» تكرَّر انتقادي لياكوني، بصوت عال، حول خياراته في انتقاء التشكيلة وتكتيكاته في اللعب.

صادفتُ ياكوني، في فندقنا، جالساً وحده في غرفة الطَّعام، وقد استبدَّ به قلق شديد، فسألته، مشيراً إلى المنفضة: «متوترٌّ»؟

كان ثمَّة غضب خالص في عينيه لهنيهة، ثمَّ إنه كزَّ على أسنانه، وغمغم قائلاً: «كاتب أمريكي؟ بالطَّبع كلا! بل مجنون أمريكيٌّ»!. لم يكن الوقت مناسباً كي أشير إلى عدم وجود تعارض بين الصِّفتيَن، وبأنَّ المجانين يكونون على صواب أحياناً. ولكنَّ صحيفة محلية، وصفت خسارتنا أمام لوكيزي على أنهَّا «كارثة فنيَّة وتكتيكيَّة»، حتى إنَّ أحد لاعبي ياكوني المفضَّلين، قد لامه أيضاً.

36- سلطان الضربات الساحقة

ما زلنا منتشين لفوزنا على تورينو، وستتمكَّن أربعة أفرقة من «الخلاص»، في حين لن يفلح أربعة. لذا، كانت وجهة نظري على الأقل هي: بصرف النظر عما حدث، فإننا لم نتعرَّض للإذلال في دوري الدرجة الثانية. لم نتعرَّض لهزائم نكراء طيلة الموسم، بحسب ما بدت عليه التكهُّنات قبل بداية الموسم، أو في شهر ديسمبر. وبصرف النظر عما إذا كنا سوف نصمد حتى النهاِية، بعد ثلاثة أسابيع من هذه اللحظة، فإننا لن نكون أوَّل الهابطين إلى دوري الدرجة الثالثة على الأقل.

لم نبلغ كاستل دي سانجرو إلا صبيحةَ يوم الاثنين .كانت تلك الأيام الأربعة أكثر الأيام إرهاقاً، طيلة الموسم، من الناحية الجسدية والوجدانيَّة على حدٍّ سواء، ولكنَّا حصدنا فيها أربع نقاط، حين لاح في البداية، أنَّا لن نحصد فيها سوى الصِّفر على الأرجح.

هل كان ذلك ممكنا؟ هل من الممكن أن يحصل ذلك؟ لم يعرف أحد الإجابة، ولكن المسألة بدت في هذه الأثناء، بعد أن خضنا خمساً وثلاثين مباراة حتى الآن ولم يبقَ سوى ثلاث، كأنَّ السُّؤال ما زال من الممكن طرحه.

37- المباراة المصيرية

يشتمل وقت الموسم في دوري الدَّرجة الثانية على سبع وخمسين ساعة من اللعب، دون احتساب

الأوقات الإضافية التي يحتسبها الحكم في كل أسبوع، إلا أننَّا نتذكَّر تلك الدقائق الأربع في نهاية المباراة التي خضناها ببسالة في ساليرنو على أنها كانت في تلك الأثناء الدَّقائق التي قرَّرت مصيرنا. والتي انتهت بالخسارة ،1- صفر، أمام فريق ساليرنيتانا، رغم هذه الدقائق الأربع التي منحها الحكم وقتاً محتسباً بدل الضائع.

وهكذا سوف ينطلق ديربي أبروتسو، الجزء الثاني. كاستل دي سانجرو ضد پسكارا، ولكنَّ الموسم بأكمله هذه المرَّة على المحكِّ، بالنسبة إلى كلا الفريقَيْن، فبقَدْر ما نحتاج إلى الفوز كي نحظى بـ «الخلاص»، فإنَّ پسكارا يحتاج إليه كي يحافظ على فرصة الصعود إلى دوري الدرجة الأولى.

لم أغضب وحدي، وإنمَّا جميع أهالي كاستل دي سانجرو، من القرار الذي اتخذته «سوتشتا» ببيع 20% من تذاكر المباراة إلى خصمنا .لم يسُمَع بذلك من قَبل، بكل ما في الكلمة من معنى. فسألتُ ثمَّ سألت، وكان جواب الجميع الجوابَ ذاته: لم يسبق لأي «نادٍ»، في جميع المستويات، أن حاول جني أرباح إضافية من مباراة مصيريَّة، مثل هذه المباراة، سامحاً أنْ تمتلئ ربع مقاعد استاده بمناصري الفريق الضيف.

عبَّر كل لاعب من الذين كانوا يخبرونني طيلة الموسم أنَّ «لا سوتشتا» جشعة، ومخادعة، وغير كفؤة، عن وجهة نظرهم، مرَّة أخرى بالاقتراب منيِّ قائلين إن كنتُ قد أدركت الآن ما قصدوا. وأكّد كل واحد منهم على ضرورة أن أتطرَّق إلى هذه المسألة في كتابي. وكان هذا الأمر مذهلاً، إذ لم يعُد أحدٌ يتكلم عن كتابي. بدا الأمر، منذ عدَّة شهور، كأنَّ الكتاب لن يكُتبَ أبداً: كنت هنا لمجرد أننَّي كنت هنا؛ مجرَّد جزء من نسيج الموسم.

كان المشهد عند المكتب المؤقَّت لبيع التذاكر صباح الجمعة أعظم جلبة رأيتها في حياتي. وكل ما أستطيع قوله هو أنَّ حدوثها كان شيئاً جيداً في كاستل دي سانجرو. فالناس هنا، على الأقل، يتمتعون بالذَّوق واحترام الآخرين إلى درجة تمنعهم من استخدام العنف حين يحاولون القفز إلى الأمام في الطابور.

بيِعَتْ بحلول الظَّهيرة آخر تذكرة. وكان أكثر من ألف شخص على الأقل، من أولئك الذين أخلصوا في تشجيعهم للفريق على مدار سنين، قد رُدُّوا على أعقابهم خائبين. وصلت شاحنات التلّفزة لتصوير الشَّغب، الذي ظنَّ كثيرون أنهَّ سيندلع، وبثّه على الهواء. ولكنَّ أهل كاستل دي سانغرو

حافظوا في نهاية المطاف على كرامتهم، فتفرّقوا ببساطة، شاعرين بخيبة أمل كبيرة، ولكن ليس إلى الدَّرجة التي ستحوِّلهم إلى همج يغدون فُرجةً على شاشات التلّفزة. شعرتُ، بقَدْر ما يشعر اللاعبون أنفسهم، بأنَّ هؤلاء الناس يستحقُّون «الخلاص».

38- الرقص برشاقة والهجوم بمباضع

« كانت هذه المباراة من أجل «الخلاص»، ولن أشهد تجربةً أخرى مثلها، بصرف النظر عن النتيجة، ما دمتُ حياً.

تسلَّمنا زمام القيادة منذ البداية على نحو مدهش. بدا فريق پسكارا بطيئاً ومملّاً، كأنَّ دوري الدرجة الأولى لا يلوح أمامهم البتة. بدأنا، بعد الدقائق الخمس عشرة الأولى، بالثقِّة في أنفسنا قليلاً، فاندفعنا مهاجمين وانتهت المباراة بفوزنا 1-2.

قُضي الأمر. أهدى اللاعبون «الخلاص»، على الفور، وبالإجماع، إلى پيُّو ودانيلو.

قال لي ألبيرتي، في غمرة البهجة الصاخبة التي عمَّت غرفة تبديل الثيِّاب: «في الأسبوع القادم سوف يذهب بعضنا، في رحلة خاصَّة إلى قبرَي پيُّو ودانيلو لإلقاء تحيَّة الوداع الأخيرة. ونرغب في أن تأتي معنا». لا أظنُّني قد شعرت بمثل هذا التشريف في حياتي قطّ.

39- النهاية المعجزة

أن أستيقظ متحرِّراً من الخوف، متحرِّراً من الريبة المزعجة، متحرِّراً من الحاجة إلى العيش على الأمل؛ كانت هذه تجربة لم اشهدها من قَبل في كاستل دي سانجرو. ظننتُ أنَّني قد أتعلَّم، بعد فترة من التأقلم، كيف أحبها.

قالت صحيفة محلية: «كان فيلماً ذا نهاية معجزة، تحقّق بعد مأساة وشجن وفضيحة ويأس»، فيلماً يستحقُّ حقاً عنوان: «أعظم حكاية رُوِيتَ على الإطلاق».

لم أتمكَّن من قراءة الصحف، قراءةً معمّقة، إلا في وقت متأخّر من ذلك اليوم، فأدركتُ أننَّا قد فزنا كما تنبأَّت. كانت النتيجة 1-2.

أحضرتُ حاسوبي الشَّخصيَّ، في تلك الليلة، استجابةً للطَّلب الجماهيرِّي، إلى مطعم مارتشيلَّا، وأعدت تشغيل المباراة لساعات. كانت النتيجة فوزنا 1-2، في كل مرَّة.

أقُيمت حفلة ضخمة على شرف الفريق، و لم يسبق لي أن ألقيت خطاباً بالإيطالية البتة، ناهيك عن إلقائه من فوق منبر مجهّز بميكروفون وجمهور حيٍّ يقترب تعداده من ألف شخص، بيَد أنَّ الذي قلته كان نابعاً من القلب .

أخبرت الحضور أنَّ هذه السنة كانت أكثر سنة مميزَّة في حياتي. ولقد بتّ أحبُّ أبروتسو، على مدار هذه السَّنة، وأشعر أنَّ كاستل دي سانجرو موطن روحي الحقيقي. أزِفَ وقت رحيلي وعلى الرَّغم من أنَّ توقي الشَّديد للعودة إلى زوجتي وولدَي في أمريكا، فإنَّ الرَّحيل على وشك أن يفطر قلبي، إذ عرفتُ أننَّي لن أتمكَّن بتاتاً مرَّة أخرى من أن أكون شديد الالتصاق بمثل تلك المجموعة المدهشة من الرِّجال كمثل التصاقي باللاعبين الذين صنعوا فريق كالتشيو كاستل دي سانجرو.




وجيز الكتب


كلمة
KALIMA


مركز أبوظبي
للغة العربية
Abu Dhabi Arabic
Language Centre